

التكافل الاجتماعي عند متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني

(الإطعام والإيواء أنموذجاً)

أ. يوسف الطيب - جامعة جيلالي لياس سيدي بلعباس

الملخص بالعربية:

قام متصوفة الجزائر بأدوار هامة خلال الفترة العثمانية، باعتمادهم مبدأ التكافل الاجتماعي لتحسين أوضاع الطبقة المحتاجة من طلبة، فقراء، مساكين، عجزة، مرضى وعابري سبيل. مستغلين مؤسساتهم (الزوايا) في إيواء وإطعام هذه الفئات، وبذلك تحول متصوفة الجزائر خلال هذه الفترة المذكورة إلى مؤسسة اجتماعية فعالة.

الملخص بالفرنسية:

Les roles des soufis de l'Algérie étaient importants au cours de la période ottomane, en adoptant le principe de la solidarité sociale pour améliorer la classe des étudiants nécessiteux de la situation, les pauvres, les personnes âgées, les patients et les passants. Profitant de leurs institutions (zaouayas) pour abriter et nourrir ces catégories, transformant ainsi les soufis en Algérie au cours de la période en question à une institution sociale efficace.

تمهيد:

عرفت الجزائر على غرار بلدان المغرب العربي انتشارا واسعا لظاهرة التصوف والطرق الصوفية خلال الفترة العثمانية، وتبوأ رجال التصوف مكانة خاصة سواء على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو الثقافي، فقد تحالفوا مع السلطة الجديدة وساهموا في توطيد أركانها و لعبت الظروف الداخلية و الخارجية دورا أساسيا في التقارب بين الطرفين.

ظهرت مكانة متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني في الجانب الاجتماعي فقد أدوا أدوارا هامة كإصلاح ذات البين داخل المجتمع والتكفل بالطبقات الهشة و المعوزة، ويعتبر التكافل الاجتماعي أبرز ما تسم به متصوفة الجزائر خلال الفترة المذكورة لا سيما الإطعام و الإيواء لمختلف شرائح المجتمع من طلبة و مرضى و عجزة و فقراء و مساكين و عابري سبيل وغيرها .

ولذا سأعتمد في هذا المقال على إبراز أبعاد و جذور التكافل عند المتصوفة و نماذج منه (الإطعام و الإيواء) عند متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني .

*التكافل الاجتماعي عند المتصوفة "أبعاده و جذوره":

إن المتفحص لفحوى معظم النصوص المنقبية يلحظ أن المتصوفة لم يتركوا مجالا من مجالات الدعوة و الإصلاح إلا و اقترحوا بدائل واقعية للخروج من نفق الأزمة وفق سنة التدرج و البناء المرحلي، و لم يركن المتصوفة اعتزال الناس و الانشغال بالعبادة كما يرى الكثير، وإنما اندمجوا في محيطهم الاجتماعي و خبروا مشاكله بدقة¹.

ومن هذا المنطلق يمكن تعريف التكافل الاجتماعي على أنه إدراك عميق لمنفعة الناس و السعي الحثيث لتخفيف معاناتهم و الأخذ بيد المستضعفين و التعساء منهم في أعمال البر و الإحسان²، و رغم أن رجال التصوف لم يكونوا على درجة واحدة من التواصل الاجتماعي، فهناك من قاموا بالتأطير الاجتماعي و الديني وهناك من تصدى للتربية الخلقية و الروحية، و من ساهم في منجزات اجتماعية، و منهم من اكتفى بإشعاعه العلمي و شغل فراغه في العبادة .

إنّ العلاقة بين الصوفية و المجتمع هي علاقة روحية بالدرجة الأولى لكن المشكلات الخاصة و الدنيوية لا تغيب عن هذه العلاقة بشكل أو بآخر (تأمين حياة السكان، التدخل لفض النزاعات بين الأفراد و القبائل ...) و خصوصا إذا كانت سلطة الدولة لا تتجاوز المدن في كثير من الأحيان³ .

إنّ التكافل الاجتماعي عند الصوفية يستمد مرجعيته الأولى من النظام الإسلامي الذي يتميز بقدرته على توثيق العلاقات الإنسانية و الاجتماعية و للروابط الطيبة النقية أثرها في غرس المودة في النفوس و إشاعة الخير في المحيط الإنساني، و في دائرة العلاقات بين الناس يظهر أثر الإنسان في الغير كما يظهر أثر الغير في الإنسان، و لهذا يدعوا

الإسلام إلى بذل المال في الصدقة والعطف على الفقراء والمحتاجين والمساكين، وقدوتهم في ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي يقول عنه جابر رضي الله عنه " ما سئل رسول صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال : لا، وما سأله رجل غنماً بين جبلين فأعطاه إياها، وبلغ من عطائه: أنه أعطى ثوبه الذي على ظهره ."^{4 5}

أما المرجعية الثانية للتكافل هي أن المتصوفة اختاروا الزهد كمنهج حياة فقد مقتوا الشح والبخل وآثروا الجوع على الشبع، واعتبروا أن التكافل إنما هو التصوف وهو مراقي في سلم الولاية. صنف على أساسها المنفقون بسخاء من الأولياء ضمن أقطاب الطبقة الأولى⁶. ولإدراك شيوخ التصوف أهمية حفظ النفس في أصول الدين، أفتى ابن العريف (536هـ / 1149 م) " إن خدمة الفقراء ومساعدة الضعفاء وقضاء حوائجهم من الأمور المفضلة على الحج ".⁷

يتضح من خلال هذه الفتوى قيمة التضامن الاجتماعي وارتباط العلماء بقضايا الإنسان في المنعطفات الصعبة وتقدم الإطعام على فريضة الحج لدرء خطر المجاعة⁷، ولا غرو أن نجد أن منزلة القوت من الدين كالرأس من الجسد⁸، هذا وقد زحرت بلاد المغرب بنماذج ساطعة في مجال التكافل والتضامن مع فئات المجتمع في الظروف الصعبة، ويعتبر أبو العباس السبتي (524 هـ - 601 هـ / 1132 م - 1205 م) رائد هذا الاتجاه ومؤسسه فقد كان يرى أن لب القوانين الشرعية هو الصدقة فكان يجلس في الأسواق والطرق ويقول " أصل الخير الإحسان وأصل الشر البخل وبذلك أصبح يعرف بصاحب الصدقة بمراكش⁹، وقد تنافس العلماء والأولياء في إعداد واستقبال الجياع" في المواضع المعدة لأفاق الواردين وإطعام المحتاجين من القاصدين¹⁰.

لقد اعتمد المجتمع المغاربي عامة والمجتمع الجزائري خاصة على شيوخ الطرق ورجال التصوف في مواجهة الأزمات المحدقة به كالمجاعات والأوبئة والأمراض، ورغم نقص الإمكانيات المادية للتكفل بالمحتاجين فان الطرق الصوفية بذلت ما في وسعها وبما أتتحت لها للتخفيف من آلام التعساء وشفاء البؤساء¹¹.

ومن أمثلة ذلك ما قام به الشيخ أبو زكريا يحيى الزواوي (611هـ / 1215 م) من دور كبير في تخفيف معاناة سكان مدينة بجاية لما أصابتهم مجاعة في أوائل القرن السابع الهجري 13م، حين جمع المعونات من الأغنياء واشترى فندقاً بثلاثمائة دينار وجمع فيه الفقراء المشردين واشترى لهم ما يكفيهم من الطعام واللباس إلى أن انجلت الأزمة في العام الموالي¹²، وقامت زاوية إبراهيم التازي بتقديم أنواع الطعام والفواكه للفقراء والمساكين وذكر ابن مصعد أن الطعام كان يأتي للزاوية وليس له وقت معلوم¹³.

واستمر هذا النسق في التكافل عند متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني، وسنركز في هذا المقال على نماذج من هذا التكافل من حيث الإطعام والإيواء .

*التكافل الاجتماعي عند متصوفة الجزائر خلال العهد العثماني (الإطعام والإيواء):

يبدو أن إطعام المعدمين والمحرمين وإيوائهم في الظروف الاستثنائية على سبيل البر والإحسان والمواساة أهم ما كان يطمح إليه رجال الصوفية، وحرصوا على تنشئة المجتمع على قيم التضامن وسلوك التكافل ومحاربة البخل وتدعيم قيم البذل والعطاء حتى في أعوام المسغبة، وروي عن محمد بن عبد الجبار ميمون بن هارون المسعودي الفجيجي والمتوفى عام 950هـ والذي كانت له زاوية بحدوش من تاسالة، بنى بيتا للفقراء المرادين ينفق عليهم ويموئهم وباع جميع ماله من الأرض وأنفقها على مرديه. ويحكى انه قصده جمع غفير من بلاد المغرب في عام مجاعة ولم يكن عنده طعام، فأكرمه الله بتليس قمح وقصعة سمن ومغزة حملها إليه أحد الزوار فاطعم بها ضيوفه¹⁴.

وكان سيدي محمد بن عبد الرحمن بن جلال الوعزاني التلمساني (المتوفى 981هـ) "ذا تؤده وسكون وسخاء"¹⁵، واشتهر عيسى الديندي بحب المساكين وخدمتهم والقيام بشؤونهم والتقرب بكسوتهم، حتى لا تراه إلا مطعما أو كاسيا¹⁶، وقد سجل الفكون¹⁷ ألوانا عديدة من أشكال التضامن والتكافل مع الطبقة الهشة من طرف أصحاب الولاية حتى الذين قدم في حقهم نقدا لاذعا وسماهم مدعي العلم و الولاية. ومن أمثلة ذلك ما رواه عن سيدي أحمد العطار الذي قال عنه " أنه يأوي الى جماعة الفقراء ويصاحبهم ويجمع معهم في ليالي مخصوصة كليلة المولد وليلة الجمعة"¹⁸.

إن متصوفة الجزائر وزواياهم كانت دائما مضيافة للضعفاء والمحتاجين سيما أيام القحط ، حيث سمحت للفلاح أن يغرف من مطمورتها للأكل والزرع ، وهو غير مطالب برد المعونة، وإنما الواجب الأخلاقي هو الدافع لردّها أيام اليسر¹⁹.

واشتهرت زوايا كثيرة قي هذا المجال فقد مارست وظيفتها الدينية والاجتماعية كإيواء الطلبة والسكان الفقراء والغرباء سواء في الأرياف أو المدن، ففي الأرياف برزت خنقة سيدي ناجي، وخلوة سيدي عبد الرحمن الاخضري، وضريح سيدي خالد وزاوية محمد علي المجاجي (أجهلول)، وزاوية القيطنة، وزاوية ابن علي الشريف ومارست زوايا المدن نفس الدور مثل زاوية الفكون بقسنطينة وزاوية مازونة وزاوية عين الحوت بتلمسان وزاوية محمد التواتي ببجاية ، وزاوية مولاي حسن بالعاصمة كانت سكنا للغزّاب وزاوية سيدي أبي عتيقة تستقبل الفقراء والمرضى والعجزة ، وزاوية سعيد قدورة مخصصة لاستقبال فقراء العلماء، وزاوية علي الزاوي للعامة²⁰.

وفي الجنوب الجزائري أدت زواياهم نفس الدور، وهو ما أشاد به العياشي في رحلته فقد ذكر انه زار زاوية سيدي أحمد بن موسى بضواحي الساورة (بشار) ووصفه انه يحسن لأهل الأسفار²¹. وفي منطقة واحات توات ظهرت زوايا عديدة قامت بأدوار اجتماعية هامة مثل زاوية سيدي عبد الله بن طمطم بقرية الذغامشة التي أثنى عليها الركب من أصحاب العياشي وقالوا " إن صاحبها من أهل الخير وهو يطعم الواردين عليه في بلاد كاد الطعام أن يكون فيه دواء"²². وعمل مؤسس الزاوية الزبانية على توفير الماء بالزاوية وفي غيرها للسابلة وأهل البلاد الذين كان يعوزهم نقص الماء²³، وهو ما يبدو أنه حرك من عجلة توفير الغذاء عن طريق تنشيط الزراعة.

وفي منطقة القبائل حدّت الزوايا من مظاهر البؤس الاجتماعي وساهمت بصفة أساسية في أبعاد شبح الجوع والتشرد عن سكان الريف مثل زاوية عبد الرحمن الليولي وأحمد بن إدريس وابن علي الشريف (شلاطة) هذه الأخيرة كانت تتوفر على ست رحي تشتغل باستمرار لتوفير الطعام للفقراء، ولمن يقصدها من الزائرين ولسد حاجات طلبتها²⁴.

وتجدر الملاحظة أنّ الأنشطة التكافلية لشيوخ التصوف والزوايا خضعت إلى لغة البركة والكرامة من خلال حصول الكفاية من القليل أو تكثير القليل أو إحضار غير المنتظر، والأمثلة في ذلك كثيرة نكتفي بذكر البعض منها: فقد زوي عن محمد بن علي اهلول المجاجي (945هـ / 1002م) أنه كان يطعم الطعام وزاويته معدة لإقراء الأضياف، وأنه أطمع في ليلة واحدة نحو 1300 مجاهدا في ثغر تنس وأفاض عليهم بالثريد واللحم والعسل والسمن حتى شبعوا²⁵. و ذكر عن أبو الحسن علي بن محمد الزواوي أنه جاءه صاحب عيال تعرض إلى فاقة قوت ، فأخرج له الشيخ أربعة أمداد قمحا، وقال له لا تتناول منها إلا وأنت على طهارة. قال: ولزمت ما قال لي وكان ذلك في آخر الشتاء وأوائل الربيع فكفاني ذلك وعائلي حتى وصلنا إلى الأكل من حرثنا بعد دخول زمن الصيف²⁶.

وبالغ شيوخ الولاية في إكرام محتاجيهم حتى وصل الأمر بسيدي أحمد بن سعيد العفيفي وهو من أهل القرن الحادي عشر والذي انتفع به فقراء زمانه أن يبعث إلى ضيوفه من الفقراء والسابلة والمساكين، وإذا أبطؤوا عليه ضاق وحزن، وإن أتوا إليه سر وفرح²⁷. وكان سيدي محمد صالح الورثلاي يطعم الطعام لليتامى والأيتامى من النساء والمحتاجين كل يوم وكان وليمة عنده²⁸.

وفي أواخر العهد العثماني قام المرابط بن عودة من عائلة الغبريني في شرشال بتقديم المعونات اللازمة للمحتاجين أثناء مجاعة عام 1811م²⁹ وذكر صاحب المرأة أنّ المرابط بن عيسى كان له ممثلين يجمعون الغلال ويوزعونها على الطبقة المعوزة، وكان، له دار ضيافة في كل مسجد يطعم فيها المسافرين ويأويهم بلا مقابل وكذلك الأمر بالنسبة للحيوانات التي يستعملونها والتي ترافقهم³⁰.

هذا و قد تحولت أماكن دفن شيوخ الطرق والزوايا والمرابطين إلى مزارات تعود الناس أن يتصدقوا فيها على الفقراء فيوزعون عليهم الخبز والدرهم، أملا في أن يستجاب دعائهم³¹ وبهذا نفع المتصوفة المحتاجين والأيتام والأرامل والمرضى وأبناء السبيل في حياتهم ومماتهم.

الهوامش:

- 1 - مجموعة من المؤلفين ، التصوف السني في بلاد المغرب ، منشورات الزمن، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2013 ص، ص: 206،207.
- 2 - نفسه، ص: 42 .
- 3 - إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 15، دار الرشاد، الدار البيضاء، ط1، ج3، 2000، ص-ص: 52-50 .
- 4 - رواه مسلم
- 5 - عبد الحق حميش، السلوك والعلاقات الاجتماعية، جريدة الخبر، العدد 7333، الاثني عشر 3 فيفري 2014، ص: 18.
- 6 - مجموعة من المؤلفين، التصوف السني في بلاد المغرب، المرجع السابق، ص: 224-223.
- 7 - نفسه، ص: 225.
- 8 - ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيق، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965، ص: 109.
- 9 - عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، دار المعرفة، الرباط، المغرب، ط1، 2001، ج1، ص: 85.
- 10 - ابن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص: 413.
- 11 - أعمار هلال ، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السوداء، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1982، ص: 138.
- 12 - الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 هـ و 13 و 14 الميلاديين، دار الهدى للنشر والطباعة، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 188.
- 13 - ابن مصعد التلمساني، روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين، مراجعة وتحقيق يحي بوعزيز، منشورات ANEP، 2004، ص-ص: 159-198.
- 14 - ابن مرتم التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص: 288.
- 15 - نفسه، ص: 261.
- 16 - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1987، ص: 146.
- 17 - عبد الكريم الفكون (988-1073هـ): من أسرة علمية شهيرة، ساهمت في توطيد الحكم العثماني بالجزائر وتمتعت بامتيازات واسعة، يعتبر الفكون من كبار علماء عصره وتولى مشيخة الإسلام، وإمارة ركب الحج، واشتهر بالتدريس والتأليف ويعتبر كتابه منشور الهداية من أهم مؤلفاته ينظر الى : المهدي البوعبدلي، عبد الكريم الفكون القسنطيني، الأصالة، العدد 51، ص 14 وما بعدها.
- 18 - عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص: 92.
- 19 - Octave depont et xavier coppolani , **les confreries religieuses musulmans** ,adolphe jourdan , imprimeur libraire Alger-1897 , p :230.
- 20 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، ج1، ص-ص: 268-270.
- 21 - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1979، ص: 68.
- 22 - نفسه، ص: 70.
- 23 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي ، المرجع السابق، ج1، ص: 505.
- 24 - ناصر الدين سعيدوني، في الهوية و الانتماء، البصائر، الجزائر، 2013، ص: 154.
- 25 - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تحقيق خير الدين شترة، دار كردادة ، بوسعادة، الجزائر، ط1، ج2، 2012، ص: 429.
- 26 - نفسه، ص، ص: 268، 269.

- 27- نفسه، ص - ص: 60-62.
- 28- نفسه، ص، ص: 384، 385.
- 29- الشريف كمال دحومان الحسني، أشرف الجزائر ودورهم الحضاري في المجتمع الجزائري، دار الخلدونية، ط1، 2009. ص: 110.
- 30- حمدان خوجة، المرأة، تقديم وتحقيق محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، 2008. ص 21.
- 31- نفسه، ص: 20.